(خلف علي الخلف: حقيقتان وممثلة واحدة (مونودراما

ديسمبر 27 ,2013
0
489

خلفية سوداء تتناثر عليها تلوينات حمراء على شاكلة مقهى. كرسيان وطاولة واحدة، وهناك فنجان قهوة، علبة سجائر على الطاولة، ومنفضتان. أوراق متناثرة وآيباد [أو لابتوب صغير]. امرأة شابة تعود من عمق المسرح تجر الكرسي الذي يبدو أنها كانت تجلس عليه.

تبدأ بقراءة بعض الأوراق بصمت… ترمي الأوراق على الطاولة وتحدث نفسها.

– من الصعب إنجاز عرض مقنع من كل هذه الأفكار والشهادات المتناثرة، الأمر ليس سهلاً. الكتابة لا يمكن أن تصل إلى تجسيد حدث، الكتابة تنقل أشياء من الحدث، تصفه، تنقل مضمونه، في كل حدث هناك أشياء لا يمكن نقلها. كيف يمكن نقل أحاسيس ومشاعر وأفكار أشخاص مشاركين في ذلك الحدث لحظة وقوعه، هذا يقتضي أن يكون الكتاب كلهم موجودين في ذات اللحظة.

-صعبة يا أخي… سلمى أصرت على صديقها الكاتب أن لا يكون النص مباشراً أن يكون خافتاً أن يغوص في المشاعر والعلاقات الإنسانية… قد يكون الحق معها… تريد عرضاً يقاوم الزمن، ويمكن أن يعرض في كوستاريكا ويتفاعل معه الناس بعد سنوات طويلة من لحظة كتابته.. لكن هذا تعقيد للأمر. نحن نريد عرضاً مسرحياً بسيطاً وعادياً؛ وبالتأكيد لا يمكن لشكسبير أن يكتبه لنا ولن يخرجه «بيتر بروك».. بروك آآآه بروك [كمن يتذكر]… وجدتها: «المتناقضات». الوصول إلى الحقيقة عن طريق المتناقضات. هذا مناسب لفكرة العرض الذي نريده. ويناسب الحالة التي نريد التعبير عنها، وبالتأكيد لسنا أفهم من «بروك» في المسرح. ولكن ما هي الحقيقة التي نريد أن نصل إليها! هل هناك حقيقة أصلاً يجمع عليها الناس [تشير إلى الجمهور وتسألهم:] هل الحقيقة واحدة موحدة لكم جميعاً… رأينا الحقيقة الواحدة الموحدة أين أوصلت الشعوب. خذوا الكوريين الشماليين الذين يلبسون لباساً موحداً ويبكون بكاءً موحداً على فقد الزعيم… وأسماء زعمائهم موحدة… كيم سونغ الجد، وكيم جونغ الاب وكيم جونغ الابن. بقي كيم جونغ الروح القدس ليكتمل الثالوث المقدس. هذا الشعب الموحد على حقيقة واحدة وقائد أوحد منذ أكثر من نصف قرن… ميت من الجوع. هذه هي الحقيقة. الحقيقة الموحدة سخف… ما فائدة الحقيقة أصلاً… بماذا تنفعنا؟ في هذا العرض تحديداً ماذا يمكن أن تنفعنا الحقيقة؟ وهل هي غائبة أصلاً كي نكشفها ونقنع الناس بها؟

لنتدرب على قول الحقيقة… لنستحضر أمثلة على قول الحقيقة. هل تذكرون الطفل الذي قال: الملك عارٍ… ما قاله كان حقيقة يراها الجميع. لكن فكروا قليلا ما نفع «حقيقته» التي قالها؟… أنا أرى أنه مجرد ولد أرعن. الناس كلها كانت متواطئة مع الملك ويرون لباسه جميلا، والملك نفسه مبسوط بهذا، ما فائدة أن يواجه طفل حشداً كاملاً بالحقيقة، ما فائدة أن نقول إن الملك عارٍ؟! خرّب الاحتفال كله، وجنى على الخياط… وكشف كذب الجمهور الذين كانوا جميعاً يرون هذه الحقيقة لكنهم تجاهلوها لأنها غير مفيدة، وهذا الولد، لأنه ولد خربط القصة كلها… ماذا استفاد؟ ماذا استفاد الحضور؟ هل عدل هذا الولد مسار التاريخ؟ كلا [باستعراضية شديدة] كلا… لم يغير شيئاً سوى أنه تسبب في عقاب الخياط… ولا تذكر الأسطورة ماذا حل بوالديه. الحقائق العارية مجرد أساطير. المسألة معقدة برأيي…

لو كانت سلمى هنا لقالت: لا لا… لا تصدقوها. هذه وجهة نظرها… هذا تبرير لتسويق الأكاذيب، إذا كانت حقيقة ساطعة كملك عارٍ يتم الالتفاف عليها بهذا التبرير السخيف ماذا سنقول للطغاة المواربين… الحقيقة هنا أن الطاغية كان عاريا… حقيقة مثل التي قالها هذا الطفل ساطعة ولا يمكن إخفاءها بغربال مهما جرّت من ويلات عليه وعلى أهله وعلى الخياط الذي خدع الملك… هذا ما يسمونها الحقيقة العارية، وأصلا لم تكن تحتاج لكشف. الحقيقة تقول إن هناك طغاة مستبدين وحاشية كاذبة يبيعون لهم العري على أنه لباس سحري لم يصنع مثله في التاريخ، وهناك من يواجههم بهذه الحقيقة. لو لم يكن للحقيقة قيمة بذاتها لما بقي من يتمسك بها على مدار التاريخ… الحقيقة حرية… الحقيقة تحررنا… كم هي ثمينة وغالية تلك الحرية؛ وإلا كيف يمكن أن يكون مهرها الروح، ملايين الأرواح ذهبت من أجل الحرية… الحرية…

بدأنا ننزلق إلى المباشرة التي حذرت منها سلمى. لكن هذه حقيقة. لو كنت أنا الحرية التي يدفع الناس أرواحهم من أجلها. هذا يرضي غروري كأنثى، أن يكون مهري غال، أغلى من مهر عبلة التي طلب والدها مئة من النوق العصافيرية من عاشقها عنترة. أنا... أريد أن أكون الحرية. [خرجتُ عن النص... لكن الأمنيات دائما خروج عن النص].

– حسناً... «لا بأس من الإقناع» كما قالت سلمى ونحن نضع مخطط العرض مع الكاتب. علينا أن نستخدم «المتناقضات» في سبيل إظهار الحقيقة. أنا شخصياً أعرف الحقيقة، وهي هنا في جيبي الصغير، صحيح أني لا أهتم لها، لكن لا بأس من إقناع المتعامين عنها. في سبيل إقناعكم [تتوجه للجمهور] لابد أن أسرد لكم قصتي الحقيقية... وستسرد لكم سلمى إذا جاءت قصتها الحقيقية.

أنا أعرف سلمى تشرد دائما خارج الوقت، منذ أن عرفتها وهي تنظر لساعتها دائماً، رغم أنها لم تلتزم بموعد إلا بالصدفة. هذه حقيقة سلمى وهي حقيقة هامشية لكنها أيضا في جيبي هنا... إذا لم تأت سلمى سأسرد لكم «حقيقتها» وهي بالتأكيد مختلفة عن حقيقتي [تشير إلى جيبها]، رغم أنها لم تقنعني لكن الواجب المهني... لا، لا... واجب الإقناع يقتضي أن أعرض لكم حقيقتين وتصوتون بالنهاية لاختيار الحقيقة التي ترون أنها هي الحقيقة، وأنا واثقة أنكم ستصوتون لحقيقتي أنا.

– لن ألتزم بالنص!. فحقيقتي التي سأحدثكم عنها أنا التي رويتها للكاتب، صاغها عبر لغته، واختصر أشياء كثيرة عجز عن نقلها لكم، واستبعد أشياء لا تتوافق مع ما يراه «الحقيقة». لكن هنا أنا سيدة النص ولا يمكن أن يقطع المخرج والكاتب العرض لأني تدخلت في الحقيقة التي رسموها لي. وربما لا يكونان حاضرين أصلاً.

– سأتلو لكم ما دوّنه الكاتب وعليكم أن تلاحظوا خروجي عن النص بأنفسكم، فليس من المعقول أن أنبهكم في كل مرة أخرج فيها عن النص. وأقول لكم: أنا أخرج عن النص أيها السادة المشاهدون.

– ولدتُ في الشهر الأول من عام 1971 في اليوم الأول منه... هكذا تم تسجيلي في السجل المدني، لكن أبي كشف لي لاحقاً أنه ليس تاريخ ميلادي الحقيقي، أمي فكرت بزواجي منذ أن ولدت وقالت لأبي: «يعني كم يوم تقديم لا تضر»؛ فأنا ولدت في آخر عام 70 في 16 تشرين الثاني، أبي كان لديه مبرر آخر، فهو لم يكن يريد تسجيلي في يومٍ مشؤومٍ كهذا. وهكذا بكذبة صغيرة كسبت سنة... وتخلصت من سخرية أصدقائي طوال حياتي. ما فائدة الحقيقة هنا؟ أنا أجد أن كذبة مثل هذه مفيدة لشخص واحد على الأقل الذي هو أنا.

حين وعيت على الدنيا [كما يقولون] وجدتُ أبي شاعراً، كان حين ينتهي من كتابة قصيدة ينادي أمي كي يقرأ لها آخر ما كتب. [كانت تؤمن أن أبي أعظم شاعر في الوجود... رغم أنها لم تقرأ من الشعر إلا ما يقرؤه لها أبي] لم أكن أفهم «حقيقة» ما يقوله أبي، ظل في مخيلتي نبرة صوته وحركاته الاستعراضية وهو يقرأ لأمي التي كانت في حالات الرضى تسمع له بحبور شديد وملامح الإعجاب تكون واضحة على وجهها؛ بينما حينما تكون غاضبة منه تظهر ملامح الضيق والتبرم.

كنت أكتب في الاستمارات المدرسية في خانة مهنة الأب: شاعر. كنت أكتبها بفخر شديد، وأنظر إلى زميلاتي اللواتي يعملُ أبو الواحدة منهن سائق تكسي، أو شرطياً، أو حارساً في منشأة حكومية أو عسكرياً أو ضابطاً... باستخفاف شديد [الحقيقة كنت أنظر بازدراء ولكن الكاتب أصر على أن نتجنب احتقار المهن ونوصل رسالة محايدة]. كانت دهشة المعلمات وزميلاتي عند جوابي على سؤالهن «ماذا يعمل أبوك؟» تزيد إحساسي بالتفوق. ومرة قالت لي المعلمة: «ما نوع الشعر الذي يكتبه أبوك؟». لم أفهم حينها ما تقصده المعلمة كنت في الصف الرابع الابتدائي، وحين أدركتْ ذلك قالت لي: «هل يكتب الغزل أم المديح أم الهجاء...». قلت لأبي بفرح شديد السؤال حينما عدت إلى البيت... أذكر أن خيبتي كانت شديدة بجوابه. قال أبي ضاحكاً: «يا بنتي لم تعد هذه التقسيمات في الشعر... أنا أكتب شعراً حديثاً». لم أفهم هذه الـ «حقيقة» في حينها، واعتبرت إجابة أبي مجرد محاولة لصرفي عنه لأنه كان يقرأ. وحين سألته عن ماذا يتحدث شعرك يا أبي؟. قال إنه يتحدث عن الإنسانية. لم أفهم ماذا تعني الإنسانية في حينها، لكن مخيلتي الطفولية تخيلت شيئا جميلاً... تخيلت غيمة تحملني إلى خالتي في استراليا... تخيلتُ... [لا داعي لأن أعيد تخيلات طفولية وأنا بالغة ستثير سخريتكم]. قال أبي حين عرف أني أكتب مهنته شاعر، إن الشعر ليس مهنة! الشعر مجرد هواية. أما مهنتي فهي محلل بيانات في مديرية الإحصاء.[كان صعبا على أن أتخيل ما تعنيه مهنة أبي]. تلك الحقيقة أثارت استيائي. لم أحب مهنة أبي وبقيت أكتب في حقل المهنة في أي استمارة أو أي سؤال عن عمل الأب: شاعر. وأصبحت أضيف لها أحياناً: يتحدث عن الإنسانية.

أبي اعتقل في عام 1982. كنت صغيرة، ولم أفهم حينها ماذا يعني «اعتقال»! ومع مرور الأيام عرفتُ أنهُ غياب ضحكة أبي أثناء مشاكساتي الطفولية. الاعتقال غياب حضنه حينما كان يعجز عن الإجابة على أسئلتي. لم يكن أبي يمتلك الحقيقة مثلي. كنت أحيّره في أسئلتي التي لم يكن لديه إجابة لها سوى حضني وتقبيل رأسي وأنا في حضنه. من مثل: لماذا لا تصبح رئيسا يا أبي؟!

– ليس مهماً هذا الآن، رغم أنه جزء من حقيقتي. أريد أن أقول لكم لماذا أنا هنا؟ بصراحة أنا متحمسة لهذا العرض الذي نريده حقيقياً ومقنعا للمتفرجين. لذلك عليّ أن أخبركم بحقيقتي... رغم أني أفكر بتأسيس جمعية اسمها «أعداء الحقيقة»... آه نسيت أن هناك حقيقة أخرى تقدمها سلمى حينما تأتي ولكني متأكدة أن حقيقتي ستعجبكم. [يمكن أن تحاول الممثلة بحركة من جسدها إقناع الجمهور بحقيقتها] حقيقتي رشيقة، سمبتيك. صحية. إنسانية. لا تسبب الكوابيس. تدوم طويلاً. حقيقتي مع الخير ضد الشر. الجميع يدّعون أنهم يقفون بجانب الخير حتى لو كانوا أشراراً. ذلك يعني أن الخير حقيقة مفضلة على الشر. أنا حقيقة الخير وسلمى حقيقة الشر. أستغل غياب سلمى وأدّعي ما أريد، فهي لا تعتقد هذا. هي تعتقد أيضا أن حقيقتها مع الخير ولصالح الناس.. بالنسبة لي الخير والشر متساويان، ولا يهمني هذا الأمر إن شئت الدقة، المهم هناك حقيقتان. أنا سأعرض حقيقتي. ولن أعرض حقيقتها لكم لأنها ستأخذ الوقت المخصص لي. بالطبع هناك تناقضات في حقيقة كل منا. فهذا ما يمكن الاعتماد عليه لإقناعكم بحقيقة نهائية... حقيقة نهائية! هذا تعبير سخيف لكن الكاتب أصر عليه.

– الحقيقة ليست بالألوان؛ الحقيقة دائما ترتدي الأسود والأبيض. هكذا كانت تقول سلمى. أضحك وأجيبها: ولهذا أنا لا أحبها. ليس أنا فقط، لا أحد يحب الحقيقة عندما يُوَاجَهُ بها، أقصر طريق لفقدان صديق هو مواجهته بحقيقته. وإن كان متسامحاً ومدعياً لقبول الرأي الآخر ولم تفقده من أول مرة، جرب كرر أمامه حقيقته كما تراها أنت عدة مرات. إنها وصفة مجربة لتخريب العلاقات. جرب أن تقول لزوجتك ما هذه الملابس السخيفة التي ترتدينها دائما! أو أعد عليها أسبوعياً، يا الله كم تثرثرين كأنك «بالعة امرأة». أو قولي لزوجك: آه لا تقبلني أرجوك فرائحة فمك كريهة.

لم يعد أحد يرتدي الأسود والأبيض فقط، الناس بالألوان، الصور بالألوان، الرسم بالألوان؛ لذلك الجميع لا يحبون الحقيقة التي بالأسود والأبيض [طبعا أنا أدعي أن حقيقتي ملونة..]. الكاتب حذرني من هذه الجملة «لا أحد يحب الحقيقة» قال إنها إطلاقية واستبدلها بـ «كثيرون لا يحبون الحقيقة». لكني شخصياً لم أقابل أحداً يحب الحقيقة في حياتي.

– أعود لحياتي. باختصار شديد اعتقل أبي... ومات في المعتقل، أمي لم تتزوج فقد ربتني أنا وأخي الذي سافر بعد تخرجه من الجامعة إلى دبي، لم يوفق بعمل مناسب طوال سنين كما يقول، ولم يرسل لنا قرشاً.

أما أنا فدرست اللغة العربية. وتخرجت بأربع سنين، و«ما طلعت الأولى ع الصف» [بتنغيم]. الذين يدرسون لغة عربية آخرتهم مدرسين يربون الأجيال... وأصعب شغلة بالعالم هي تربية الأجيال. التربية صعبة لكنها مهمة. أهم شيء... لذلك عندما نشتم أحدا نقول له: يا قليل التربية. هذا ليس همّ الأهل فقط، بل همّ الأنظمة أيضاً. الأنظمة تنظر لنا كشعوب قليلة تربية؛ لذلك تصرف أموالا طائلة لتربيتنا، تصرف على السجون والمعتقلات والمحققين والجلادين و... تريد أن تربينا وتؤدبنا. هذه مهمتها التي نذرت نفسها لها، تفعل كل شيء من أجل أن تربينا، ونكون [شطورين ومطيعين ونسمع الكلمة... واللي ما يسمع الكلمة شو بيصير فيه؟ نوديه على «غرفة الفيران»..].

هذا ما فعله النظام بأبي... أخذه إلى «غرفة الفيران» مع أنه لم يكن صغيراً. لكن الأب والأم يربّون أولادهم الصغار ويساعدهم في ذلك المعلمون والمدرسون، وطبعاً العصا خرجت من الجنة لذلك أهلنا ومدرسونا ربّونا بالعصا ونحن صغار، لكن النظام استخدم هذه العصا كي يربي الكبار قبل الصغار... لأن الكبار أيضاً لا يعرفون مصلحتهم... والله العظيم هذه حقيقة. فعلاً كثير من الكبار لا يعرفون مصلحتهم وناقصهم تربية. جارنا تزوج وحدة «استغفر الله» وترك عيلته وأولاده لأمهم المصابة بألف مرض لتربيهم... ومن سنين لا حس ولا خبر... هذا بصراحة يحتاج تربية، ويجب أخذه إلى «غرفة الفيران» حتى لو كان كبيراً...

– ما أقوله لكم هو الحقيقة التي أرويها عن حياتي. هناك أشياء لا أستطيع أن أصارح أحداً بها. في حياتي، وفي حياة كل منكم أشياء كهذه. المهم دخلت وخرجت من كلية الآداب... لم أتوظف لأن أبي كان قليل تربية وحاول النظام تربيته لكنه مات قبل أن يتربّى، عجز النظام عن تربيته. وإذا كان أبوك يحتاج تربية، كيف سيربيك؟ أكيد ستكون قليل تربية، وعليك أن تقبل شتيمة «يا قليل التربية» عن طيب خاطر لأنها حقيقة. لن

يتركوك تربي الأجيال وأنت شخص قليل تربية. بالتأكيد ستفسد عليهم تربيتهم، وإذا كانت أي وظيفة تحتاج لموافقة أمنية واحدة فالعاملون في التربية والتعليم يحتاجون موافقة كل الفروع الأمنية وعد إذا تقدر تعد.

ولأن أبي مات وهو قليل تربية، كانت الوظيفة بعيدة عن «شاربي» في زمن النظام الذي عشت وتربيت وترعرعت في ظله، ترعرعتُ... هأ هأ هأ هأ... ترعرعتُ... من أكثر الكلمات صعوبة هذه الـ ترعرعتُ، ثقيلة على النطق وجرسها الموسيقي لا يوحي بمعناها... المهم ترعرعتُ، ترعرعتُ في ظل هذا النظام... [رعرعني ع الخدين شو ها الجسارة...] هأ هأ هأ، للمرة الأولى أجد هذه الكلمة معبرة. فعلا لقد ترعرعنا جميعا... النظام رعرعنا كلنا، وبينما النظام يرعرعُ أبي مات كما أخبرتكم، فترعرعتُ... هأ هأ هأ، ترعرعتُ... دون أبٍ، رعرعتني أمي، ترعرعت وأبي يترعرع في «غرفة الفيران»»، عشرات الآلاف رعرعهم النظام في السجن مثل أبي، وعندما يترعرع أبوك في السجن وأنت تترعرع خارج السجن في ظل النظام الذي لم يكن هناك ظل إلا ظله، فهذا كافٍ كي تكون مجرماً حتى لو لم تكن تعرف لماذا ترعرع أبوك ومات في المعتقل.

– حسناً هذه تداعيات قد تجلب تعاطفكم وضحككم لكنها قد تفقد النص تماسكه، وتشتته بين سيرة حياتي أنا وسيرة حياة عائلتي. فلا يمكن سرد سيرة حياة العائلة من وجهة نظري والادعاء أنها كانت حقيقة. ثم إن وقت العرض قصير ومحدود.

لكن بالله تعالوا نفترض أن أبي ترعرع فقط عشر سنين في السجن، وخرج يكمل ترعرعه في ظل السجن. هل تتخيلون أن يكون مؤيداً للنظام الذي رعرعه؟ لا أتصور، لا أتصور أن يساند أبي هذا النظام لو كان حيّاً، المتناقضات تقول ذلك. المتناقضات التي قررنا استخدامها لكشف الحقيقة... لكن المتناقضات نفسها تقول إن ما من سبب يجعل زوجي يساند هذا النظام. فقد تزوجته لأنه يشبه أبي [باستعراضية شديدة] وكل فتاة بأبيها معجبة. لكني اكتشفت حقيقته... ما علينا.

– المهم يا سيدي [تقلب الأوراق التي في يدها] يجب أن نختصر. الوقت يداهمنا وأنا ما زلت في البداية، قد أستهلك وقت العرض كله دون أن أترك لسلمى وقتها المخصص لعرض حقيقتها... [تنظر إلى ساعتها] تأخرت هذه الغبية... هذه الـ سلمى تدعي أنها تتمسك بالحقيقة، وأن الحقيقة بالنسبة لها شيء مقدس، لكن ولا مرة جاءت على الموعد إلا إذا كانت جالسة بشكل مسبق في مكان الموعد وهذا يحدث عندما يكون اللقاء في بيتها فقط...

ما هذه الترهات علينا أن نستغل الوقت بأشياء مهمة، أشياء كبيرة تهم أوسع شريحة من الجمهور. لنتحدث عن حقائق تهم الشعوب، لا مجرد حقائق عن حياتي وحياة سلمى.

إذن وبسرعة سأقول لكم: عندما أحرق البوعزيزي نفسه كنت بالكويت... حدث كبير لكنه ليس جديداً وتعرفونه بالطبع. ومثل كل الناس التي ربّتها الأنظمة وترعرعوا في ظلها، عشتُ أيامي أتابع الأخبار، بدلت صورتي إلى علم تونس في صفحتي على الفيس بوك. ووالله العظيم كنت أبكي كلما سمعت أحمد هرمنا.

كنت أسمعه لوحدي مثل المجنونة، وأبكي أبكي [هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية] وبعدين [تبكي الممثلة] وبعدين لما بن علي هرب... [باللهجة التونسية وهي تمسح دموعها] لما بن علي هرب وشفت العويني يصرخ [يا توانسة يلى عذبوكم... يا توانسة يلى قهروكم... يا شعبنا يا عظيم... يا شعبنا يا غالي... تنفس الحرية الآن... بن عليّ هرب...] ارتعشتُ، ارتعش كل جسمي. شعرت بلذة لم أشعر بها بحياتي. وصلتُ إلى ذروة لم أصل لها في كل حياتي العاطفية والزوجية. كان جسدي يرتعش مع النداء. كنت أشعر أني أعانق حبيباً فارقني سنينَ طويلة والتقينا... وأنا أرتعش قلت «يا بيبي بن علي هرب يا بيي..». وقتها اتصلت بأمي وأنا أبكي أقول لها «يا أميييي بن علي هرب». ما حكينا... كانتْ تبكي وأنا أبكي، وبقينا هكذا لا أدري كم من الوقت... لم أعد أذكر تفاصيل ما جرى بعدها... وجدت نفسي صباحا والمنبه يرن نائمة على الديوانة... قمت أيقظت زنزون وفطّرتها، ورحنا إلى المدرسة وأنا قلبي يتقافز، فرحانة... أريد أن أرى رد فعل المعلمات على هروب بن علي... وأنا في الطريق اتصلت بسلمى وقلت لها: «ولك شفتي شفتي شلون بن علي هرب... وطلعت ترباية للشعب التونسي فاشوش... »

لم أكن أتخيل إلا أن تشاركني سلمى فرحي... كنت أتوقع أن نقفز معاً على التلفون ونحن نتبادل التهاني... لكن سلمى صدمتني... وتقمصت اللهجة المصرية ببرود وهي تقول لي:

-«ومالك فرحانة أوي كدة ياختي..». تلعثمتُ...

-«شلون يعني شو قصدك... يعني شو قصدك يعني شلون مو فرحانة فـ...»

– «يعني مبسوطة أنو بكرا يستلموا الإسلاميين بتونس... حبيبتي بكرا ما يظل مهرجان قرطاج اللي حضرتك وحضرتي نحلم نعرض مسرحيتنا فيه... أو يصير لازم نعرضها بالنقاب إذا بقي قرطاج...»

بوهن شديد جاوبتها:

– «شلون يعني مين قال أنو هيك رح يصير...»

– «هي الحقيقة وبكرا تشوفي...»

لا يمكنكم تخيل صدمتي... نزل ضغطي وسكرت تلفوني. رجعت دقت لي فقفلت الموبايل كله...

ضيعت لي فرحتي الله ينتقم منها. معقولة هناك ناس يفكرون بهذه الطريقة. معقولة لأجل عرض مسرحي لا نشارك التوانسة فرحتهم التي أعطتنا الأمل. معقولة سلمى لا تفكر غير بحالها ومسرحيتها وهي ترى شعباً أعزل يطيح بديكتاتور ويجبره على الفرار. لا أصدق. حتى لو استلم الإسلاميون يصطفلوا... إذا الناس انتخبوهم يصطفلوا... لا أحد يقول لي إن الأكثرية ليست دائما على حق، ويحتج بقصة الأكثرية التي كانت مع لباس الملك العاري... لأن أكثرية الملك كانت مع الكذبة بينما أكثرية البوعزيزي صدقت الحقيقة، وصارت معه. صدقته وو... بن علي هرب. هذه حقيقة تريدونها أسود وأبيض تريدونها ملونة أنتم أحرار.

– لا أريد أن أطيل في هذه النقطة، فما زال أمامنا فترة طويلة يجب أن نتحدث عنها كي نصل إلى متن هذا العرض... المهم عندما بدأت المظاهرات في مصر كنت بالكويت... و... اليمن والبحرين وليبيا وعُمان وسوريا... لا..لا لن نلحق. لن أستطيع الحديث عن كل هذا ضمن عرض مسرحي... هناك آخرون يمكنهم الحديث عن ذلك. لست مؤرخة للربيع العربي، المطلوب هو عرض مسرحي بوقتٍ محدد وليس الحديث عن «تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». نعم هذه حقيقة علينا أن لا نتجاهلها. العرض لا يحتمل.

يمكن أن نبدأ بجملة [وعندما قامت الثورة في سوريا كنتُ بالكويت...] يجب أن نترك لآخرين أن يكتبوا عن تلك الثورات. يجب أن نتحدث عن الأشياء التي نعرفها ونترك الآخرين يتحدثون عن أشياء يعرفونها. في هذا العالم كل شخص يجيد أمراً محدداً أكثر من الآخر. علينا أن نؤمن بالاختصاص.

– نعم عندما قامت الثورة في سوريا كنت في الكويت وأخي في دبي وأمي... آآه أمي... يا الله كم أنا مشتاقة إليها... كم أحبها. سأحكي لكم عن أمي التي تجاهلها الكاتب وقال إنها مثل كل الأمهات. لكن أمي والله العظيم مختلفة... شرحتُ له ذلك وقلتُ له إن أمي كانت تظل تبكي... فقال إن أمه أيضا كانت دائما تبكي، لكن والله بكاء أمي مختلف، أمي إذا أحد زعجها تبكي... عندما كان يزعجها أبي تبكي؛ وعندما كانت تزعج أبي تبكي؛ وعندما لا ننفّذ لها ما تريد تبكي؛ وعندما تضربنا تبكي؛ وعندما تشعر أن العالم يخذلها تبكي؛ وعندما يسافر أحد منا تبكي؛ وحينما يعود تبكي... بكاء أمي مسلسل مكسيكي...

مرة كنت راجعة من الجامعة، وعادة أول شيء أفعله عندما أدخل المنزل هو أن أبحث عنها لأقبلها أو ألقي التحية عليها حسب مزاجي؛ الذي غالباً يكون مكدراً؛ بعد معركة المواصلات التي أخوضها كي أصل البيت، وإذا كانت الفتاة فيها مسحة من الجمال مثلي لكم أن تتخيلوا حجم المضايقات التي تواجهها... لا والله ليس شرطاً... بجمال من دون جمال بشورت بحجاب... كلهن يتعرضن... الرجال يتفششون بنا. أو يمكن لأنهم عاطلون عن العمل يقطعون الوقت بمعاكستنا... وربما بسبب الكبت... لن أطيل عليكم فقد دخلت إلى غرفة أمي؛ فوجدتها جالسة أمام الكمبيوتر وتبكي بشدة وهي تكتب؛ لا يمكن لي أن أعتبر أن الأمر لا يعنيني؛ فعدا عن كون علاقتي بأمي مازالت حميمة؛ فأنتم تعرفون أن بكاء الأمهات يصيب الأولاد بشلل تام؛ وفي علاقتنا مع أمهاتنا نظل أولاد حتى لو كانت أعمارنا قد وصلت الخمسين... في البداية خطر لي أنها تكتب خاطرة وتوحدت معها؛ واقتربت منها بسرعة خاطفة وبدأت أحضنها من خلف الكرسي الذي تجلس عليه وأقبل رأسها.

– «شو مام شبك مامي... »

وهذا تدليع لأمي يخص شخصيتي كفتاة حنونة تحب أمها؛ وبالطبع سيكون الرد التلقائي لأي شخص تسأله هذا السؤال الأحمق: «ما في شي». ولا يمكن أن نتفاصح هنا ونقول أنها قالت: ليس هناك شيء يا ابنتي، لا أحد في الكون يتحدث لغة فصيحة وهو يبكي. ليس لدي غير هذا السؤال رغم معرفتي أنه أحمق. بعد لحظات من محاولة التخفيف عنها ومسح دموعها، جلست على ركبتيّ أمامها وبدأت أمسح دموعها وأحضنها وهي في كرسيها:

-«مامي الله يوفقك لشو تبكي. ما تبكي حبيبتي الله يخليك..»

– لماذا كانت أمي تبكي حينها؟ [تفكر]... [تهز رأسها] حتى لو كانت ذاكرتي فولاذية لا يمكن لي أن أتذكر الآن؛ فأمي تبكي دائما وعليّ تذكّر كل تفاصيل حياتي إذا أردت تذكّر لماذا كانت أمي تبكي في كل مرة... يا الله ما أحلاها أمي..

أمي ما زالت صبية وهي تكبرني فقط بعشر سنوات كما كانت تصر ضاحكة لمن يسألني إن كانت أختي. تزوجت باكراً؛ وخلفت من أبي أنا وأخي الذي أكبره بسنتين. عشت معها وأبي 12 سنة قبل أن يأخذوه لتربيته ويموت من شدة التربية.

كانت أمي تضحك وتفرح عندما يحسبنا الناس أختين. لم تكن تخفي سعادتها. كنا نسخر من الأمر. لكن وجهها كان يزداد إشراقاً. هذا يعني أنها ذات وجه مشرق. نعم أمي جميلة جداً، وجه أبيض مدور وشعر خرنوبي ناعم وعيون خضراء ورثتها من جدتها الأرمنية، ولم تكن قصيرة، لذلك لم تكن تلبس أحذية بكعب عال إلا نادراً، لم تكن بحاجة لتزوير الحقيقة وتبدو أطول مما هي في الواقع، كما تفعل الكثير من النساء، ليواجهن «حقيقة» طولهن. كانت تحب المشي كثيراً. وكثيراً ما رافقتها في عادتها هذه، رغم أني لا أحب المشي مثلها، إلا أنه في بلادنا لا يفضل أن تمشي إمرأة لوحدها في الشوارع وخصوصاً إذا كانت غير مزدحمة أو على أطراف المدينة كالشوارع التي تحب أن تمشي فيها أمي. سيعتبرها «العاطلون» فريسة سهلة...

أمي درست للبكالوريا وعندما جاءها الفارس على حصانه الأبيض، الذي كان أبي، تركت الدراسة رغم أنها سجلت حقوق في جامعة حلب، وتوظفت، في المؤسسة الاستهلاكية قبل أن يكتشفوا أن أبي قليل تربية. وإلا لما حلمت بالوظيفة مثلي.

نسيت البكاء الذي هو محور حكايتي عن أمي... لم تكن أمي تبكي على ضياع فلسطين أو بسبب العمليات الإرهابية التي تقتل الناس في الشوارع أو في بيوتهم أو في وسائل النقل، ليس لأن قلب أمي قاس، بل لأن أشياء مثل هذه لا يبكي أحد بسببها إلا أصحاب العلاقة، أهل الميتين وأقرباؤهم وأحباؤهم، أما هؤلاء الذين يدّعون أنهم يتألمون بسبب ذلك، فهؤلاء متباكون، وأمي ليست متباكية، أمي تبكي بحرقة شديدة وتفيض دموعها بصمت. عندما تشاهد صورها القديمة لوحدها تبكي، وعندما تفتش في أوراقها القديمة ورسائلها تبكي، تظل أحيانا لساعات في غرفتها وأعرف أنها تقرأ رسائل أبي لها، أو تلك القصائد التي قال لها إنها عنها أو مهداة لها. مات أبي ولم يطبع ديواناً وبقيت أوراقه عند أمي، وبالطبع لم يكن مسموحاً لنا أن نطبع قصائد شخص قليل تربية ومات قبل أن يكمل تربيته ويتخرج. هذا ما أورثه أبي لأمي. أنا وأخي وكومة أوراق وصور وبيت أجار قديم.

لا أتدخل في حياة أمي أو خصوصياتها، لكني لم أتعود على بكائها أبداً، ولأنها تريد أن تبكي بصمت ولوحدها ولكي لا تسمع سؤالي الغبي المتكرر: «شبك مامي؟». كانت تخفي دموعها عني. أحياناً تلبس نظارتها الطبية لكن مع ذلك تسيل دموعها من تحت النظارة. أبي لم يكن يهتم لبكاء أمي. ربما يعتقد أن بكاء النساء أمرا طبيعيا مثله مثل تدخين السكائر. الرجال يهتمون في بداية حياتهم ببكاء صديقاتهم أو حبيباتهم لكن تلك النسوة لو أصبحن زوجاتهم لما اهتموا ببكائهن. هذا خبرته بنفسي، فقد ورثت أشياء كثيرة من أمي منها دمعتها، وإن لم يكن مثلها، فبكائي لا يشكل 10 بالمئة من بكاء أمي إلا أني أبكي أيضاً.

الكاتب المتعجرف الذي حاولت إقناعه بأن يدخل أمي إلى النص كجزءٍ من حقيقتي لأنها أم مختلفة وتبكي. قال لي: أنت تعتقدين هذا. الطبيعي أن تبكي النساء. ولوى بوزه [تقلده]«صديقي الذي تزوج قبلي قال لي مرة: لا تتزوج إمرأة لا تعرف البكاء.»

أنا أعرف البكاء، هذه حقيقة يعرفها كل من حولي. مرة كنت مع أول شخص أحببته في حديقة عامة وجلسنا على أحد الكراسي، وقتها كنا خارجين من الجامعة وعزمني إلى الحديقة لأنه مفلس مثلي. ما إن أشعلت سيكارة حتى وقف كالممسوس، مشدوهاً:

– «ولك شو شو شعلت سيكارة... لك نحن بحديقة عامة... »

وحين أبديت استغرابي من تصرفه وأنه يعرف أني أدخن وسبق أن دخنا في محلات عامة... بدا كمن لا يريد أن يسمع ويلقي أوامره بأن أطفئي السيكارة. حين لم أرد عليه أخذها من يدي ودعسها بكعب حذائه. لم أتحرك من مكاني لكن دموعي تحركت من عينيّ إلى خدودي... جلس أمامي يراضيني مبدياً أسفه على تصرفه. شتم العالم والبلد والناس التي لا تجعل المرء يعيش حراً حسب ما يريد. لم تقنعني مبرراته... وعندما عدت حكيت لأمي ما حدث، كنتُ لا أخفي عنها شيئاً، إذا أحد «لطشني» في الشارع أحكي لها، أحكي لها الحقيقة دائماً... كان رأيها أني لو كنت زوجته لعفسني كالسيكارة ولن يأبه لدموعي... بكت أمي يومها.. حضنتها ومازحتها قائلة بأني أنا التي يجب أن تبكي وليس هي. لكنها كانت تبكي من أجلنا أكثر مما نبكي على أنفسنا أو من أنفسنا. طبعا لم أقتنع بكلام أمي؛ فقد تزوجته لكن منذ تلك السيكارة تركت التدخين. بعد زواجي منه أضفت سبباً جديداً لبكاء أمي.

الكاتب كتب عنه أشياء كثيرة في النص، متذرعاً بأنه يجب أن تكون علاقتي الزوجية أحد محاور العرض. لكني سأتجاهل ذلك وأتجاهل كل ما كتبه عن علاقتنا. لا أريد له أن يحضر في عرضٍ أحبه ومتحمسة له لأن وجوده في النص سيحبطني. سأتجاهله في العرض كما غيبته من حياتي. لا أريد أن أنتحر مثل أمل... أمل التي حذفها الكاتب بحجة أن هذه تفاصيل، سأعيدها إلى النص غصباً عنه... أمل صديقتي. تعرفتُ عليها عن طريق سلمى وكانت صديقتها المقربة. تزوجتْ من تحبه؛ فاكتشفته على حقيقته كما يحدث بين كل الازواج. عانت من الحقيقة التي اكتشفتها... وانتحرت. نعم انتحرت. «هي هي الحقيقة اللي بدكن ياها؟» [تكررها] انتحرت أمل بسبب الحقيقة. شرفوا هذي هي الحقيقة... قصة أمل طويلة وموجعة، كانت أكثر واحدة عرفتها بحياتي منسجمة مع نفسها، لا تفعل إلا ما تؤمن به حتى لو كان ذلك يضايق الجميع، تأقلمنا مع أمل وكانت هي الحقيقة التي تصفعنا دائما، لا أحد يحب حقيقته بعيون الآخرين. لذلك قال ماركس «الآخرون هم الجحيم».

تعاملنا مع أمل على أنها هكذا ولا أحد يؤاخذها!. انظروا كيف قلبنا المفاهيم، لأنها تقول الحقيقة صرنا نتعامل معها كمجنونة... الحقيقة إنها فعلا مجنونة... مجنونة فعلاً. لو لم تكن مجنونة لما انتحرت بسبب رجل... لا يوجد رجل في العالم يستحق أن تنتحر امرأة لأجله أو بسببه. انتحرت لأنها كانت مخلصة للحقيقة... أردت أن أذكرها فقط لأبين لكم أن الحقيقة تكون قاتلة في كثير من الأحيان ومأساوية... ما فائدة الحقيقة حين تكون قاتلة؟

-نسينا المسرحية والعرض والنص وسلمى... الله لا يوفقك يا سلمى على التأخير إنشاء الله تصدمك شاحنة وتفرمك فرم وتصير أكبر نتفة منك بحجم ذرة الغبار التي نراها تتطاير على أشعة الشمس وهي تدخل من الشبابيك.

كانت سلمى تضحك حينما تسمعني أدعي عليها هكذا. مرة كنا نمشي مع بعض وكنا نريد قطع الشارع واقتربت شاحنة لكن المسافة كانت كافية لنعبر. قلت لها: «يالله نعبر»... وقفت وقالت: «لا والله ما حزرتِ تريدين أن يتحقق دعاءك علي..»

[تتجه إلى الطاولة وتقلب الأوراق..] والله شكلنا لن نلحق لا عرض ولا طول... حتى الآن لا يوجد أي فكرة مكتملة... ومساحة الارتجال التي تركها الكاتب لنا ذهبت في الحديث عن حقيقة حياتي... أين الصفحة المكتوب عليها... [وعندما قامت الثورة السورية كنت بالكويت...] [تبحث ولا تجدها]

– المهم يا سيدي نرجع لموضوعنا... يوم 15 آذار [المصريون والمغاربة يقولون مارس] عدتُ مبكراً من المدرسة. يوم عادي مثل كل الأيام... صباحه يشبه كل الصباحات... كل شيء في مكانه... ومثل كل مرة. جليت الجليات البايتة من أمس... نفضت غبار الوقت... ورتبت وجه البيت... ومشطت شعره... كانت الدنيا صارت عصراً تقريباً عندما أنهيت شغل المنزل. شغلت التلفزيون وأنا واقفة لأشوف «شو في ما في بها الدنيا»... وإذ بأحد القنوات المصرية تعرض خبرا ولقطات عن سوريين يتظاهرون أمام السفارة السورية في القاهرة. كان أحد المتظاهرين يرفع لافتة تطالب... تطالبه... تطالبه بالرحيل. ما صدقت. قلبي صار يدق ورجليّ لم تعد تحملني من كثر ما صرت أرجف... آآآه اليوم 15 آذار... أي والله كيف نسيتِ يا غبية... قعدت على الكرسي وصرت أقلب كل القنوات. لا شيء عن سوريا... رحت إلى كمبيوتري وأنا أفكر أين أجد خبراً عن

سوريا. فتحت غوغل وكتبت مظاهرات في سوريا... ما صدقت... ما صدقت لما طلع لي خبر عن مظاهرة بقلب الشام... لما شفت فيديو المظاهرة بالحميدية صرت نط: «يس يس يس طلعوا». جاءت بنتي تركض: «شو ماما شو ماما..». قلت لها: «تفرجي حبيبي، شوفي شوفي.». كبرت عرض الفيديو على حجم الشاشة. عرضت المظاهرة لزنزون . قالت بجدية: «يعني بدن يسقطوا النظام ماما؟» حملتها بين يدي رغم ثقلها وشلفتها للسقف، وأنا أقول: «أي يا ماما بدن يسقطوه.» وأشلفها وهي تصيح نزليني... نزليني وأشلفها وأعيد: «والله يا ماما بدن يسقطوه..». لما حسيت إنها ستبكي نزلتها وحضنتها... «والله يا أمي رح يسقطوه». هدأت بحضني. قلت لها: «مانك جوعانة حبيبي». قالت بعد أن استعادت قدرتها على المشاكسة وابتعدت عن حضني: «بدن يسقطوه ليش تشلفيني لفوق. أنا زعلانة منك..». وراحت غرفة نومنا... لحقتها وصرت أنكشها: «لا زنزون... لا حبيبي ما وقت تزعلي. يالله قومي نحط أكل ونطلع نسقط النظام.». نسيت حردها مني وقالت: «وين». قلت لها قومي نأكل وبعدين سأقول لك. أكلنا وشغلت الفيديو من جديد، وكتبت لها على كرتونة «الشعب يريد إسقاط النظام» قلت لها احمليها وأنا وراءك. صرنا نهتف أنا وهي بالبيت «الشعب يريد إسقاط النظام». خلصنا مظاهرة وراحت زنزون تكتب وظائفها وأنا بقيت أشاهد المظاهرة. ظليت عيد فيها وأبكي... شيء لا يوصف. والله العظيم حتى الآن لما أتذكر تلك اللحظة قلبي يوقف.

خبرت سلمى أنيسة روحي. وقتها كانت بالشام. من شهر وهي بالشام في دورة إخراج أفلام وثائقية؛ لتؤرخ الحقائق. كما كانت تقول ساخرة. قلت لها: «شو سلوم شلونك وشلون الشام معك؟» [وهذا اسم الدلع الذي أناديها به حينما أكون راضية عنها، أو يكون مزاجي بالعلالي.].

قالت لي: «والله اليوم خالتي... خالتي اللي بالحميدية عاملة مجدرة تجنن وأكلنا لشبعنا كانوا كل الشباب هنيك...»

قلت لها: «ومن إيمتى بعدي عندك خالة.»

ردت: «ولك شبك خالتي اللي بالحميدية... خالتي هتاف افتحي اليوتيوب تلاقي فيديو عن طبخها.»

كان صوتها يرقص هكذا أحسست، نادراً ما تكون سلمى فرحة ويتسرب هذا الفرح عبر صوتها. لكني لم أفهم. قلت لها: «ولك مين خالتك هتاف؟». ردت سلمى بضحك وتأفف: «إنت مخك مسكر. اليوم عيد ميلاد ابنها وليد... اليوم 15 آذااااار... وطلعنا... قصدي رحنا لعندها...». ضحكت ضحكت. قلت لها: «آآآآه خالتك بالحميدية... كنتِ هنيك وليك سلوم... يا ألله يا سلوم نيالك، يا ألله لو كنت معكم بعيد الميلاد هذا..» وضحكت بصوت عالٍ كما لم أضحك في حياتي. قالت لي: «باي باي إنت شكلك سكرانة ورح تفضحينا.»

سلمى درست صحافة، لم تتوظف، تكتب هنا وهناك في صحف الخليج والصحف اللبنانية، ومواقع إلكترونية. اشتغلت في أكثر من مكان وتركت. دائما دائما صاحب العمل «يحط عينه عليها..». كانت سلمى جميلة. لا كانت وما زالت جميلة. أصلا يشغلونها على أمل «تطبيقها». اشتغلت في أماكن لا علاقة قربى ولا نسب تربطها مع الصحافة أو الكتابة. مشكلتها تبدأ عندما تتكشف نوايا صاحب العمل على حقيقتها، تترك الشغل. هذه حقيقية نعرفها أنا وسلمى، لكنها كانت ترد على من يسألها لماذا تركتْ الشغل بأنه مرهق ولم يناسبها. كنت أعارضها وأقول لها: «يا بنتي طنشي». وهي تصر على أنها لا تستطيع أن تبقى في مكان تحسّ أنها تغتصب فيه كل لحظة.

– يجب أن نختصر. العرض يجب أن يكون قصيرا ومشدوداً، لا نريد تفاصيل مملة. صحيح أن الكاتب ترك لنا مساحة للتحدث عن حياتنا الحقيقية، لكن ذلك لا يعني أن نضيع الخيط الأساسي للعرض. يجب أن نعرض «متناقضات»، كي تُبنى الحقيقة. ابتعدنا عن المتناقضات ومشينا في خط مستقيم... لأ؛ مشيت وليس مشينا. لأنه لا يوجد أحد غيري في العرض حتى الآن. الحديث كله عني. عن حياتي الحقيقية. سلمى حتى الآن مجرد ديكور لعرض حقيقتي..

-المهم يا سيدي بعدما بدأت الثورة واشتد عودها؛ بدأتُ «أندس» يوم وراء يوم. أعودُ من المدرسة أنا وبنتي نأكل بسرعة... هي تنام وأنا «أندس» في صفحات الفيس بوك... تطوعت بإحدى الشبكات الاخبارية... كانت مهمتي نشر فيديوهات مع تعليقات أو توضيحات حولها.

يا ألله كم كانت أيام مليئة بالحماس والفرح والأمل، أشعر أنها لن تتكرر... لكن طالت القصة وكثر الموت... وكثر «العلاكون». وفاحوا علينا من كل مكان. من الشاشات من الصحف من الفيس بوك. مرة كتب صديقي على

صفحته «هربنا من الانتهازيين إلى الثورة فوجدناهم قد سبقونا» أذكر حينها كتبت له «يجب أن نفرح، فالانتهازيون يحسبونها صح. هذا مؤشر على أن الثورة ستنتصر».

صرت أسمع كل يوم ما يسم البدن، وإذا لم ينسم بدني من التلفزيون فالفيس بوك يتكفل بالأمر. بالبداية كنت أدخل وأناقش وأعلق على صفحات أصدقائي وشبكات الأخبار وصفحات ناس لا أعرفهم... كنت حتى وأنا أنتقد أحاول أن أكون «حنونة» لكن طلعوا مؤخرا بنغمة «اللي برا ما من حقوا يحكي».

من بداية الثورة اشتريت مفكرة وصرت أسجل فيه أسماء الشهداء وفي أي مدينة قتلوا... زادت أعدادهم. وقلبي صار يجف من الدم كل ما يمر يوم جديد ويسقط ضحايا جدد، فلم أعد أستطيع فتح الدفتر لأني كنت أبكي على كل اسم أسجله. ولولا زنزون ما بقي بي قدرة حتى على أكل لقمة. صرت أمشي أجر نفسي جراً، كأني أحمل جثتي، أصبحت عيوني زايغة وساهية كأني سأنام الآن. أشرد عن الذين يتحدثون معي. كانت الكلمة التي أرددها: «صح. أي صح». كي أشعر محدثي أو محدثتي أني معه.

مرة كانت زميلتي بالمدرسة تحكي معي وأنا أرد عليها بمفردتي الوحيدة. «صح. أي صح». سألتني إن كنت سآتي مساءً إلى قهوة [اسم قهوة] حيث نلتقي أسبوعياً قلت لها: «صح. أي صح». هزتني من كتفي وهي تقول: «شفيك. إنت مانك هنا» عدت من شرودي بتثاقل قلت لها: «ما في شي.». فأعادت علي السؤال. قلت لها: لا... تعبانة. تمتمت «الله يعينكم».

أصبحتُ أعود إلى البيت، وأنا مشلولة من العجز الذي أنا فيه. أفتح التلفزيون لأرى حارتنا يتردد اسمها على كل شاشات العالم. لقد جعلنا الموت مشهورين، ليس هناك أحد في العالم لم يسمع بحارتنا. كانت مسرحاً حقيقياً للأحداث. ظلت فترة طويلة مسرحاً يبث بشكل مباشر للعالم أغانيه وأهازيجه. يا ألله الثورة السورية كم مليئة بالمتناقضات، موت ودبكة، تشييع وأغاني، قناصة ومظاهرات... قصف وسخرية... رآنا العالم ونحن نشيع قتلانا بالغناء. [سكابا يا دموع العين سكابا... على شهدا سوريا وشبابا]. غنينا حتى في المساجد...

أصبحت حارتنا مكاناً تنتشر منه رائحة الحرية والموت. لكن ريحة الموت كانت تصل لعندي وكنت أختنق. لم يعد بي قدرة على متابعة الأخبار، وحتى لا تراها زنزون أيضاً. كنت أتلذذ بتعذيب نفسي وأشاهد كل الفيديوهات التي عليها تحذيرات لأصحاب القلوب الضعيفة. بعد أن تنام.

من كم يوم زنزون لم ترض أن تدخل غرفة نومنا وبدأت تبكي... سألتها عن السبب. قالت: «شفت الأسد بالعتمة متخبي يريد ياكلني!».

ضممتها، وأخذتها إلى الغرفة ونمت بجانبها. قلت لها ويدي تلامس وجهها: «مامي ما تخافي ما بيقدر يدخل بيتنا... لأن لا أحد يحبه هنا..». بقيتْ ترتجف إلى أن نامتْ.

– خلص. آمنت أن هناك حقيقة. على الأقل الموت أصبح حقيقة يومية في حياتي. كما قلت لكم الحقائق دائماً موجعة. وعليّ مواجهة الحقيقة والوجع يومياً. لا يمكن لي أن أقول هنا: ما فائدة الحقيقة إذا كانت موجعة أو قاتلة. هناك حقائق مفروضة علينا لا نستطيع الهروب منها.

هذي هي الحقيقة، هذي أنا. سلمى صارت «تاكل هوا» وتقول لي: «إصحي إنت ما تعرفي الحقيقة على الأرض. ما يعرض على الشاشات ليس الحقيقة، هناك حقيقة ثانية غير التي تشاهدينها. القصة ما عادت إسقاط النظام. ألله لا يرد النظام. لكن البلد تتدمر... هناك أناس آخرون يقتلون، غير الذين ترينهم على الشاشات. غير الذين تعرفينهم. أنا أعرف أناساً آخرين قتلوا لم يشيعهم أحد، حتى النظام جعل موتهم يمر بصمت، يُخرج الأموات من حساباته ليحتفظ بتأييد الأحياء. هناك ناس آخرون يخطفون ويقتلون... الكل يريد تدمير البلد ولن يرتاحوا إلا يخربوها ويقعدوا على تلتها...».

يا سلمى ماذا بقي من تلتها ليقعد عليها أي أحد. حتى التلة سرقوا ترابها... آخ يا أمي آخ...

[ترمي الأوراق على أرض المسرح.] يلعن أبو المسرح ما عاد أريد لا مسرح ولا «ضراب السخن». سلمى ستسم لي بدني برواياتها للأحداث التي تصر على أنها الحقيقة ومتمسكة بها... هذي الحقيقة يا سلمى صارت

أسود وأبيض مثل ما تريدين... الآن صرتِ تقولين إنها ملونة؟ وهذا الكاتب المتذاكي مصرّ على عرض جوانب الحقيقة [تقلده بسخرية] جوانب الحقيقة... أي حط جوانب الحقيقة بطيـ. ك...

ماذا بقي من متناقضات لم يقصفونا بها. كل هذه المتناقضات وما بيّنت الحقيقة... سأضع كل هذه المتناقضات بكيس وأعطيها لسلمى تطبخها مجدرة... نسيتِ يا سلمى!... عندما كنتِ فرحانة بالمجدرة بالحميدية... وصوتك يرقص!... الآن صار سوريا ستخرب وتتدمر... الآن ما عادت الحقيقة أبيض وأسود... الدنيا كلها صارت أسود وأبيض... أيامنا كلها صارت أسود وأبيض. بقيت الصور تخرج من سوريا ملونة... الشهداء يشيعونهم بأعلام ملونة، وأرواحهم تصعد للسماء ملونة.

زمان كانت الصور أسود وأبيض لكن حياتنا كانت ملونة... لا... حياتنا ما كانت ملونة كانت سوداء. نعم حياتنا كانت سوداء فقط لكن كنا مجبرين نشوفها بالألوان. كان الخوف يلوّن حياتنا لكنها كانت سوداء مرسومة بدم جاف وصراخ مكتوم... صور أبي وأمي أغلبها أسود وأبيض وإذا كانت ملونة تكون باهتة... بآخر سفرة رفعتها كلها على الكمبيوتر. اشتريت «سكنر» من الكويت وأخذته معي. وقتها قلت لأمي وأنا أضحك سأرفع الصور وأخزنها عندي، ممكن يحترق البيت سأحتفظ بها. أمي قالت لي: «الناس تكبر ويكبر معها عقلها إلا أنت كل ما كبرتِ يخف عقلك». وأنا أشاكسها وأرد: «ليش يا أمي يعني عود كبريت ممكن يحرق البيت. ماس كهرباء..». تنهرني بشدة: «اسكتي... اسكتي... لك لا تفاولي علينا برضاي عليك...».

لا أحد رمى عود كبريت ولا صار ماس كهربائي... لكن بيتنا تهدم. بيتنا قصف مثل بيوت كثيرة... أمي تركت البيت وراحت على حلب عند خوالها... [يارايحين ع حلب حبي معاكم راح] وخالتي أصيبت ونقلوها إلى لبنان... آخ يااااا أمي...

– والله... ما بقي بي حيل... لأظل واقفة وأكمل لكم العرض. المتناقضات لا تنتهي... الحقيقة ستظل تبنى. وسلمى لن تأتي، فهي لم تغادر البلد مثلي... و... عليّ إنهاء العرض.

– (بس خلوني قبل ما أمشي أحكي بالعامية. بدي فش قلبي... من أول الثورة لهلأ وأنا حاسة بالذنب لأني برا البلد... ومتل اللي عاملتلها عملة... والغانم يهنّني أني برا... وأنو اللي برا ما بيطلعلن يحكوا... ولازم يخرسوا... عم بسأل حالي سؤال... أنو أنا ليش برا أصلا؟ والله ماني من هواة السياحة والسفر... ورجعت بالذاكرة أكثر من عشر سنين لورا... كان صرلي تمن سنين متخرجة وقاعدة بلا شغل... وصار برقبتي بنتي لازم ربيها... ولا حدا يسألني وين أبوها لأني ما بحب اتذكر ها الشي. وأم راتبها يا دوب يكفيها حق أدوية... وأخ مسافر ومن كتر ما يشكي كنا نفكر نبعت له مصاري على دبي... ما ضل محافظة ما نقلت نفوسي عليا مشان أتعين بالتدريس... بعد ما قالوا أنهم عفوا عن قليلي التربية اللي ماتوا وأولادهم... حتى الرقة... ما سلمت مني... وقتا بعد سفرة مدري كم ساعة... وصلت. ووقت تقديم الأوراق... طلع ما معي كشف علامات... وما بعرف لشو لازم مع أنو معدلي جيد جدا ومعي وثيقة التخرج... طبعا ما قبلو وراقي... ورجعت بخفي حنين... قلت بقلبي يالله يا بنت كسبتي شوفة نهر الفرات... وهيك لحتى الله فرجها وبعد ما بوسنا ولحسنا ألف إيد أخدت وكالة بضيعة تبعد عن وسط المدينة عشرات الكيلومترات... يعني سفرة الصبح وسفرة الضهر... وطبعا السرفيس بنزلني عمفرق الضيعة... ولازم أركب عالموتور لحتى أوصل عالضيعة... وشو بدي أحكيلكن عن الفقر اللي بهالضيعة... والله العظيم ما بنسى... وقت كان التلج نازل وكان عندي واحد من طلابي بوطو مفتوح وبلا جرابات... أصابعو مورمة من البرد وطالعة برا البوط. لما أرجع ما أوصل للعصر... آكل لقمة وحط راسي ونام... ما أقدر حتى أقعد شوي مع بنتي. وبس أصحى بللش ركض من درس لدرس... وبالأخير تلت رباع الدروس ما أسخى آخد أجرتها... لأنو كلن ولاد الحارة... المهم... مالنا بالطويلة... منجي عالأهم... الراتب... الراتب العظيم... اللي مقدرلو ينصرف وهوي لسه بخزنة المحاسب... فواتير المي والكهربا والتلفون... والصيدلية... اللي كتر ألف خيرها... طول الشهر عم نسحب أدوية من عندها... والسمنة والزيت والرز والسكر... والمونة... وأجرة الطريق... والمرض والأحداث المفاجئة... لا أكلنا لسه ولا شربنا... ولا اشترينا... كنزة... ولا منسترجي أصلا نفكر برفاهية... أقصى رفاهية... أنو كل شي أربع سنين ندبر لنا شي شاليه معفن ونلم هالعيلة ونقضيلنا يومين عالبحر... طبعا نصن يمضو خناق من كتر ما الكل آكل هوا وعايف حالو. شو الحل؟ بدي حل جذري. كان الحل هوي السفر بعد سنتين من الشحططة بها الوظيفة... قدمت عالإمارات... واستلفت تلاتين ألف طلبن المكتب قام طلع المكتب نصاب... بس لحسن الحظ كان آخر يوم بالتقديم عالكويت قدمت... انقبلت... خلال شهر صرت بالكويت... يوم السفر شلعت بنتي من حضني. تركتها نايمة لوحدها... وسافرت... شايلة معي الكل... شايلة معي كل شي... أسبوع دمعتي ما نشفت وأنا أتخيل موقف بنتي لما تفتح عيونها الصبح وما تلاقيني... وهيي مجرد طفلة صغيرة... كيف رح تفهم أني أنا الأم

الحنونة... قدرت دوس عقلبي وعأمومتي. وأتركها. كيف الحياة جبرتني... أني اقدر أعمل هالشي وأتخذ هالقرار... إجيت وأنا راسمة أحلام وردية... الدينار الكويتي بيعمل منيح بالسوري... بس طلع ما بضل معك ولا دينار تحولو للسوري... وطلعت الأحلام رمادية وكالحة أكتر مما توقعت... ومع كل هاد... قدرت أني انجز شي... قدرت رجع بنتي لحضني... أنزل ع سوريا... وإذا شارية شي جديد... ما أرضى أنزل فيه مشان ما حدا يتحسس... وما حدا يفكر أني صرت متل هدول اللي بروحو عالخليج... بيرجعو مبْيَضّين... ومشنشلين بالدهب... وريحة العطور بتسبقن... إلا أنا... اسوديت من الشموس... ما عندي ولا نص غرام دهب... يمكن صرت أسمن شوي... بس والله مو من الدلال... لاء من الفعي... يعني من كتر ما بحكي وبشرح للطلاب صرت استهلك اكتر... خلصو أول خمس سنين بالغربة وأنا عم وفي ديوني... برقّع من هون... بتنفتئ من هون... وكل ما صمدتلي كم ليرة بقول بركي بقدر سجل عبيت... بتكون نطت الأسعار ودوبلت... بصرفن بسوريا... وبخلص... طبعا نسيت قلكن انو أنا كل سنة كنت أنزل فيها كون مقررة انو ما بدي أرجع عالكويت... بس ها الشهرين اللي قضيهم بسوريا تثنيني عن قراري وما بصدق إيمتى أرجع الكويت... وهيك مروا أول خمس سنين... كانوا أصعب خمس سنين بحياتي الراحت واللي جاية... وكل ما مرت سنة بحس حالي بخسر... لا مو سنة يوم عن يوم بحس بالخسارة... بخسر... بس ما عم بقدر أفهم شو خسارتي... وهالشي كان يحرق قلبي... لما بلشت الثورة... وعيت... اللي كان يحرق قلبي... واللي كنت حس إني عم أخسرو..هوي بلدي... يوم عن يوم... كنت عم بعد عنها... تماما متل ما شلت بنتي من حضني... بحب بلدي ومتعلقة فيها بس ما بعرف ليش ما كانت تحضني... ليش تبعدني... وبعد وقت قصير من عمر الثورة... ولما كبرت حارتي فجأة... صرت بدي أحكي... بدي قول رأيي... بحب سوريا... وبحب كل السوريين... وبيطلعلي احكي... بيطلعلي قول أنو أهل حارتي اللي ربوني مانن إرهابيين ولا عصابات مسلحة... أنا بعرفن منيح... بيطلعلي أحكي لما خالتي بتنصاب برصاصتين... ولما بيتنا بياكل قذيفة... ولما عمي اللي عمرو خمسة وسبعين سنة... بيبكي من الخوف... ما حدا بحب سوريا أكتر مني... وأنا متلها مجروحة وموجوعة... بدور عأسماء أهلي بين أسماء الشهدا لحتى أعرف أحياء أو أموات... بفلّي الصور تفلاية لميز وجوه الشهدا إذا بعرفها... بتصبّح باستشهاد جار... وبتمسى باستشهاد صديق... ولاد حارتنا اللي كنت مر من جنبن وأتحركش فين... راحو... ماتو... هيك... بهالبساطه... ما عاد يكبرو... بدن يمسحو حارتنا؟ طيب وأنا لوين بدي أجي؟ وين بدي أسكن لما رح أرجع؟ وكيف بدي عيش من دون أهل وجيران؟)[1] ومن دون سلمى...

سلمى ماتت. [تجلس الممثلة على الأرض تستند على الكرسي... تبكي وتتابع] يمكن كانت تهرّب أدوية للجرحى في المشافي الميدانية وقتلها رصاص القناصة... يمكن كانت تهرّب خبز ومي للناس المحاصرين وتمزقت بقذيفة. يمكن اعتقلوها وماتت وهم يربّونها. سلمى لن تأتي، لم يعد أحد من الموت. أنا أعرف هذا من البداية والكاتب يعرف... لكن قلنا يجب أن تعرفوا «حقيقة» سلمى. شفتوا كم فيها تناقضات. هذه حقيقة سلمى. مثلنا تحب سوريا. والحب يقتل والحقيقة تقتل... وموت سلمى كسر ظهري. صرت يتيمة. يتيمة من دونك يا سلووووم... [تبدو الممثلة كمجنونة تقوم إلى حقيبتها تخرج الموبايل وتفتش في الأسماء] والله لأخبرها يمكن ترد علي... يمكن ما ماتت... يمكن دفنوا موبايلها معها... [تضع الموبايل على أذنها... ثم ترميه وتعود للبكاء في أرض المسرح]

يااااااا سلووووووم ولك ردي عليييييييي...

(1) النص بين قوسين بالتصرف عن شهادة لـ إيمان جانسيز منشورة على صفحتها الشخصية في الفيس بوك